ثنائية الصمت والصوت

فاعلية الأضداد في الشعر العربي الحديث

أ.م.د. إسراء حسين جابر
الجامعة المستنصرية / كلية الآداب

الملخص:

تتضمن الدراسة البحث في خصوصية الأضداد في الشعر العربي الحديث لاسيما ثنائية الصمت والصوت التي شكلت أسلوبا وسمة شعرية حملت في طياتها موقفا فلسفيا وشاعريا ،جسد مفارقة على المستوى التعبيري والدلالي إذا أخرجت نصوصهم مما هو مألوف لاستنطاق الواقع وإدخاله في واقع شعري أكثر إيحاء ، وكأن الشعراء سعوا من خلال هذه الثنائية لتكوين صورة بارزة ومؤثرة لها بعدها الجمالي والتأويلي لتكوين مشاهد اكثر عمقا وتأثيرا . أي أنها جاءت معبرة عن معاناتهم وعن خلجاتهم النفسية

1- مدخل إلى خصوصية الأضداد:-

من المثير أن نجد الشعر العربي الحديث يحفل بثنائيات كثيرة ولاسيما ثنائية الصمت والصوت ، إذ شكلت سمة لغوية وأسلوبية تعد واحدة من أهم المهيمنات التي خلقت فضاءات وأجواءً مشحونا بالدلالات المتناغمة مع المضمون الفكري والنفسي والتعبيري للشاعر .

وهنا لابد من التساؤل :

إذا كان الصمت هو انحباس الكلام واختفاء الصوت والإشارة ، فماهي علاقته باللغة الإيحائية والانفعالية؟ .

وإذا كان الصوت هو الجرس أو المنطوق اللساني، فما ضرورة وروده الى جانب الصمت وهما معنيان متنافران ؟ وما الذي أضفياه على دلالة النص؟ .

وهنا نستطيع القول : إن الصمت الذي يمثل انحباس الصوت والإشارة هو معنى لا أهمية له خارج السياق، ألا انه يكتسب أهميته من خلال تعشقه بالألفاظ الأخرى داخل

السياق إذ ترتدي اللفظة ثوبا آخر ويكتسب السياق معاني جديدة بعيدة عن الرتابة والمألوف. إذ أن الكلمة هي((مجموعة المواقع التي يمكن أن تشترك فيها إذ تلتحق الدلالة بالنظم وتصبح عند ذاك عبارة عن مجموع العلاقات المسموح لها باللفظ))(3).

إن الصمت والصوت على الرغم من إنهما معنيان متعاكسان لا يأتي احدهما حتى يرد الآخر في اطر سياقية تحقق مكسبا دلاليا ، فكل لفظ يكتسب من اللفظ الآخر دلالة إضافية إذ أن ((ما يقوم عليه النص الشعري هو خلق دلالات جديدة يقتضيها تجاور الكلمات وتأثير بعضها في بعض))(4) أي إن التجاور يحقق عدولا على مستوى المعنى ويحقق إلى جانب ذلك الوظيفة الانفعالية والتواصلية للنص الشعري

ولعل ثنائية الصمت والصوت تدخل في باب التضاد (*) وتعرفه الدراسات اللغوية الحديثة بأنه ((وجود لفظين يختلفان نطقا ويتضادان معنى كالطول مقابل القصر والجميل مقابل القبيح والنور في مقابل الظلمة ....))(5) ومنهم من سمّاه بالتقابل وعرفه بأنه وجود لفظين عكس المعنى الذي يحمله الآخرى مثل الخير والشر(6) وأطلق عليه آخرون المتخالف فالكلمات المتضادة متخالفة (7) لذا فان كل ما نجده من دلالة معاكسة بين الكلمات يمكن ان ندرجها ضمن مفهوم التضاد .

وعليه فإن التضاد بين معنيين مختلفين داخل السياق الشعري يولد لغة شعرية ويحقق حركة وانعطافا جوهريا على مستوى الأفكار ويخلق انفتاحا نصيا يقضي على مشاعر الكبت التي قد يشعر بها الشاعر، فذلك الموضوع أجده ناتجاً عن انفعالات داخلية وأزمات نفسية مؤلمة فضلا عن مؤثرات خارجية سببها المكان والزمان والأحداث المحيطة بالشاعر لحظة كتابته للنص الذي يعكس تلك الصراعات والمتناقضات، ليستطيع المتلقي أن يكتشف أثرها في الشعراء.

إذ أن الشعر العربي الحديث ، كما نعلم ، نشأ في ظل العديد من المؤثرات التي أسهمت في وجوده ، وهي مؤثرات مستمدة من الواقع الاجتماعي وطبيعة حياتهم المعيشة ، ليس هذا فقط ، هناك اسباب اخرى منها، وعي الشاعر بضرورة التجديد والبحث عن اساليب اخرى قادرةٌ على الاستجابة لنوازعه الداخلية (النفسية) والعقلية ؛ ولعل لجوء الشعراء إلى تلك المتنافرات من الألفاظ ربما يعود إلى أن تلك المعاني جاءت لتعكس واقعهم المتقاطع والمتنافر مع حياتهم فهم غالبا ما يشعرون بالاختلاف

على جميع المستويات إذ يجدون في أنفسهم اختلافا سواء على المستوى الفكري أو النفسي أو الاجتماعي .

يرى الباحث "ناهض حسن" أن توظيف الشعراء لهذه الثنائيات المتضادة والمتنافرة في قصائدهم لا يأتي بشكل عفوي بل بشكل دقيق ومحسوب ،إذ يحقق الشعراء من خلالها وظائف دلالية وجمالية يتعامل معها الشاعر بوعي عالٍ ، وبرؤية معمقة ، وحساسية مرهفة لعل أهم هذه الوظائف هي ((تعميق البنية الدرامية للنص من خلال إثارة الوهج ألصراعي بين المتناقضات ، ثم تعميق البنية الفكرية للنص من خلال حركية الجدل ألصراعي بين الثنائيات المتضادة ، أما الوظيفة الجمالية فتتجسد بإثارة الدهشة والمفارقة المتولدة من اجتماع النقيضين في بيت شعري واحد ، وكذلك في قصيدة واحدة))$^{(8)}$ أي أن المعنى يزداد بيانا من خلال توظيف الأضداد .

إذ أن التضاد وفاعليته تظهر حينما يجتمع الضدان على خطٍ مستقيم واحد ، فيتركان خلفهما ظلال المعاني ليظهر أحدهما _أي المتضادين _ بكل أبعاده المعنوية والجمالية التي كانت متماهية خلف اصطراع الواقع وآثاره.

يبين د. كمال ابو ديب أهمية التضاد قائلاً : ((أن التضاد مصدر للشعرية " لأنه مصدر (الفجوة : مسافة التوتر) " فإنه يقود إلى النتيجة التالية : وهي أن ازدياد درجة التضاد ، ثم البلوغ إلى التضاد المطلق ، قادر على توليد طاقة أكبر من الشعرية فإنه يسلم " يتمثل ذلك في الطباق التقليدي وفي مفهوم الثنائيات الضدية " . وبهذه النتيجة السليمة فإن من الواضح أن مولد الشعرية في الصورة ، وفي اللغة ، هو التضاد لا المشابهة))$^{(11)}$.

ولعل رأي أبي ديب فيه عمق وذلك لان لغة التضاد مكونة من عنصرين متضادين تسهم في تكوين المعنى وتشكيله وتكشف عن الأبعاد النفسية والفكرية التي تلم بالشاعر بحيث تترك دلالة عميقة الأثر في بنية نصه من خلال سياقها الذي يعطيها قيمتها الدلالية والفنية والجمالية إذ أن طبيعة الحياة الإنسانية في كثير من جوانبها مملوءة بالصراعات والمتناقضات التي تؤثر تأثيراً فعالاً في النفس الإنسانية وفي طبيعة سلوكها مما يجعلها عرضة لصراع نفسي داخلي وخارجي ، وكثيراً ما شغلت هذه

المتناقضات حيزاً واسعاً من الفكر الإنساني وكان لحضورها تأثير واضح متميز فكراً وفناً وإبداعاً في المجالات الحياتية عموماً

من كل ما مرّ يمكن القول إن التضاد هو مصطلح يدل على الخلاف والتمايز بين طرفين نابع من الوجود والواقع ، يثير اهتمام المبدع ويستحوذ على جانب أساس من تفكيره وملكته الإبداعية حينما يوظفه في بنية نصه ويخرجه بصيغة فنية تمنح النص خلقاً وإبداعاً وحياة وتضفي جمالية خاصة وتغمر الأسلوب بإبداعية تحتويها تعمق المعنى والبنية التركيبية للنص ، بحيث تخلق في نفس المتلقي رؤية عميقة .

2- رمزية الصمت والصوت:-

من خلال استبصار فاعلية المعاني المتضادة ولاسيما الصمت وألمه والصوت ولذته في مواجهة القراءة التأويلية يقودنا إلى تشخيص طبيعة توظيفها فتارة يكون الصمت رمزا أو كناية مهيمنة ، وتارة يكون البوح هو المهيمن ، وحينا نجد صراعا بينهما، وتارة نجد تلاحما فيما بينهما ، حتى تغدو ضربا من المجاز الذي يحمل دلالات يمكن أن نعدها شفرات لما وراء النص ،. إذ تتلاطم أنفسهم الإنسانية التي تعد مصنع الأسرار بين أمواج تلك الضدية التي ارتبطت بطبيعة سلوكهم وتكوينهم وقيمهم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية الذاتية والجماعية .

سنحاول استجلاء هذه الثنائيات على مستوى النصوص الإبداعية للشعراء وتحديد مدى تأثرهم بها واستجابتهم وتبنيهم منظومة قيمية فكرية وفنية توجه أفكارهم وإبداعهم التوجيه الذي يحفزهم إلى امتلاك رؤية فلسفية، ذاتية باطنية عميقة تعمل فيها قوة اللاوعي بمساندة المخيلة الحالمة التي تتمازج فيها حقيقة الكون وجوهره.

وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال تحليلنا لجملة من النصوص الشعرية العربية الحديثة المنتخبة :

في قصيدة (صلوات للريح) ومن الديوان الذي يحمل اسمها لخليل خوري ، وفي المقطع السادس منها ، نجد الشاعر يوظف الأسلوب الرمزي من خلال الاستعارات المكنية ، إذ يجعل للصمت ولولات ويجعل للصمت روحاً :

ذعر الليل ، وهزت ولولات الصمت أعماق الدجنة
أي جنهْ

بعثت في الصمت روحا، كيف عاد الصمتُ ريحاً
ذُعر الليل ونادى وتنادى
وتمادى غير أن الريح لم تحفل وقد زادت عنادا
دأبها أن تبعث الأموات أن تحيي الرمادا
هي لن تهدأ حتى تغزل الليل صباحاً(14)

يشكل الصمت رمزا له بعد إيحائي،فولولات الصمت هزت أعماق الدجنة، فهو يحمل معنى القوة والسطوة ، أي أن الشاعر أراد بالصمت /موت المسيح الذي هو خلود للكلمة ، وانتصاراً للمبدأ وللفكر الإنساني ، وسبب لانجلاء العتمة والخوف والفزع .

وكما هو واضح فقد اقترن موت المسيح مع هبوب الريح ، بحسب الأناجيل، حين صلب المسيح هبت الريح زعزعا اسود غطى الكون كله .

فقول الشاعر(عاد الصمت ريحا) فالصمت هو الريح والريح هي الصوت وكلا منهما حمل معاني التحدي ورغبة الانتصار .فبين الصمت والصوت صلة التحام أي أن هناك أواصر رابطة بين المفردتين المتضادتين تضاف إلى العلاقة الدلالية إلا وهي الأواصر الإنسانية والنفسية والوجودية والاجتماعية والجمالية .

وفي موضع آخر نقرأ للشاعر مقطعاً من قصيدة (رسالة إلى غيلان 1964) وهي قصيدة يرثي بها السياب :

أدق باب (بويب)أستريح هنا ،
هنا استقري ، هنا موتي على حلمٍ
كنا نحتناه من صخر المقادير،
يكاد يحفي جوادُ الوهم .طال بنا
سُرى الليالي ، وإدمان المشاويرِ
ما كان أوّل جرحٍ في تكالبهِ
وليس آخر جرحٍ منك موتور
ناعورة الحزن يا قلبي : الأنين لنا
من قال تصمت أنات النواعير ؟(15)

الشاعر هنا يعبر عن الحزن والألم لفقد الشاعر السياب ، وفي معرض هذه المرثية ترد صورة إيحائية يؤكد فيها إن موته لن يميت الشعر ، فالأنين والأنات والقوافل كناية عن ديمومة الصوت الذي لن يشيخ ولن يتوقف ، فكما نرى فان هناك صراعا بين الصوت والصمت ، فالصوت هو الكتابة وهي فعل للوجود، تقف بالضد من الصمت الذي يشكل نفيا لذلك الوجود ، ومن خلال قوة المظهر اللفظي للسياق فان لذة الصوت تهيمن على ألم الصمت

وفي قصيدة (العودة لجيكور) للسياب يتخذ الشاعر من الصليب معادلا موضوعيا لذاته ، إذ نراه يتخذ من الصمت بعدا كنائيا مختلفاً :

من الذي يسمع أشعاري؟
فان صمت الموت في داري
والليل في ناري
من الذي يحمل عبء الصليب
في ذلك الليل الطويل الرهيب؟
من الذي يبكي ومن يستجيب
للجائع العاري؟(16)

إن ألم الصمت هنا يشكل كناية عن الغربة، التي تعني الشعور ((بالابتعاد المكاني عن الوطن أي الإحساس بالغربة المكانية نتيجة المسافة التي تفصل الإنسان عن مجتمعه ومعارفه وعالمه ، وأما الاغتراب فيختلف عن الغربة اختلافاً جوهرياً إذ أنه يعني فقدان القيم الإنسانية والخضوع لواقع اجتماعي يتحكم في الإنسان ، حينئذٍ يشعر الإنسان بالانفصال والانعزال عن الآخرين والعالم ، وحتى عن ذاته))(17) في مقابل لذة الصوت(أشعاري) الذي لا يُسمع ، فسلطة الصمت تهيمن على سلطة الصوت لتعكس وجهة النظر الذاتية للشاعر المتمثلة بالإحساس بوجع العزلة القاسية ،فالشاعر يجد إن صوته بلا صدى فالذات وحدها من يصغي له

وفي قصيدة (النرفانا) للشاعر بلند الحيدري كان للوضع السياسي أثر في تشكيل ثنائية الصمت والصوت داخل السياق :

يا أرض الموتى

موتي
غوري في الموت لحد النتن
لحد الجزع
وابتلعي
أمواتك ... ميتاً ... ميتاً
واقتلعي الصمت
واقتلعي الموت من الرمة
صيري العتمة
في الحزن محاجرنا البيضاء (18)

في هذا المقطع من القصيدة نجد الشاعر ينادي أرضه التي ينعتها بأرض الموتى وكأنه حانق على واقعها وذلك واضح من خلال أفعال الأمر (موتي ، غوري ، ابتلعي ، اقتلعي) وهي أفعال أكدت انفعال الشاعر وثورته على الواقع المؤلم الذي عمه الموت والخراب والخرس الذي عم الحياة ، داعيا إلى سيادة البوح والأصوات التي يجد فيها لذة لكونها تعبر عن الحزن وذلك من خلال الكلمة الشعرية الموحية التي تقتل اليأس وتقضي على خرس الأموات .

ونرى الشاعر عبد الوهاب البياتي يحاول أن يحقق الوظيفة الافهامية من خلال استعمال أسلوب الأمر والنداء ليحاول إيصال فكرة رفضه لشعراء الساسة والسلاطين وذلك في قصيدة (قمر المعرة) التي نقرأ فيها :

فاستيقظي يا صخرة في الصدر، يا رمحاً بلا سنان
يا كلمات خُضّبت بالدّم، يا ناراً بلا دخان
و لتُسكتي ضفادعَ السلطان
و الجيف الموشومه
بالنار و الجرائد القديمه
و لتضيء البروق
....
و لتضيء المشاعل

ظلام هذا الكوكب الغارق بالأوحال و الصقيع
هذا الأقحوان الذابل (19).

كما يبدو فان الشاعر يتخذ من المعري قناعا ليحاور نفسه من خلال الحوار المنفرد ليعكس موت الضمير لاسيما ضمير الشعراء الذين يتجاهلون ظلم السلطات ، لذا نجد إن الحوار يهدف إلى صحوة الضمير وإحياء الكلمة الشعريه الصادقة :

فالسياق قائم على دلالتين تتعلق الأولى بدعوة لإيقاظ الشعراء من نومهم ويعني به نوم الكلمة المؤثرة في تجسيد الواقع والدعوة إلى إصلاحه وهذا واضح في قوله : (استيقظي يا صخرة ، يا رمحا، يا كلمات، يا نار)

والدلالة الأخرى قائمة على دعوة لإسكات الأصوات التي تطبل للسلاطين وهذ واضح في قوله (شعراء الساسة و السلطة) (لتسكتي ضفادع السلطان، الجيف الموشومة) ليحاول أن يصل إلى واقع مليء بالأضواء والمشاعل .

وكأن الشاعر يجد واقعه قريباً إلى واقع المعري ومحنته اتجاه ساسة عصره لذا جاءت ثنائية الصمت والبوح ضمن الحوار الداخلي لتعالج الواقع من خلال دعوة المتلقي للثورة

و في قصيدة (الناجون في العاصفة) تظهر ثنائية الصمت والصوت ضمن الحوار المنفرد الموجه نحو الذات التي تبدو وكأنها امتزجت مع شخصية الحلاج ليعكس التأنيب والنقد اللاذع :

و ها أنا أراك عاكفاً على رماد هذي النار
صمتُك بيت العنكبوت،تاجك الصبّار
يا ناحراً ناقته للجار
طرقت بابي بعد أن نام المغني
بعد أن تحطم القيثار
من أين لي و أنت في الحضرة تستجلي
و أين أنتهي و أنت في بداية انتهاء
موعدنا الحشر،فلا تفضّ ختم كلمات الريح فوق الماء
و لا تمسّ ضرع هذه العترة الجرباء
فباطن الأشياء

ظاهرها..فظنّ ما تشاء
من أين لي و نارهم في أبد الصحراء
تراقصت و انطفأت
و ها أنا أراك في ضراعة البكاء
في هيكل النور غريقاً صامتاً تكلم المساء(20).

تكشف القصيدة صراعاً يتسيد الواقع الذي تعمه الفوضى والاضطهاد والشك وهو واقع الشاعر الذي يتلاقى مع واقع الحلاج ومصيره فنجد على المستوى التعبيري تداخلا بين الوصف والاستفهام الوصفي وبين اللوم والتهكم والسخرية ومن بين تلك التداخلات نجد ثنائية الصمت والصوت ضمن إطار كنائي فقوله(صمتك بيت العنكبوت) (غريقا صامتا تكلم المساء)إذ يشبه الصمت ببيت عنكبوت لينقل لنا ضعف الشخصية واضطرابها وتارة ينقل لنا تشبع الشخصية بضيم الواقع لتغرق بصمتها في وضح النهار ولا يظهر صوتها إلا في المساء ..فالصوت قرين الظلمة والصمت قرين النور وهذا تجسيد للتناقض والحيرة التي لا مفر منها .

وفي قصيدة (ريشة الغراب) لادونيس يستوقفنا الطرح الفلسفي والجمالي لثنائية الصمت والصوت ، فالصمت يصل بألمه للحد الذي يصفه الشاعر بالسرطان وفي وقت حصار ، فهل هناك أكثر ألما من ذلك :

في سرطان الصمت في الحصار
أكتب أشعاري على التراب
بريشة الغراب ،
اعرف ، لا ضوء على جنوني
لاشيء إلا حكمة الغبار
اجلس في المقهى مع النهار
مع خشب الكرسي
وعقب اللفافة المرمى
أجلس في انتظار
موعدي المنسي(21)

تعد هذه اللوحة كناية عن الضياع والبؤس في مواجهة الواقع حتى ان لذة الصوت لا نجد لها وجوداً إذ إن الشاعر يكتب كلماته على التراب وبريشة غراب وكأنها لوحة توحي بالضياع ، ضياع الكلمة وضياع الذات والإحباط من الواقع ، فهناك تناقض بين الرغبة والواقع بين الفكر والممارسة وكأن الشاعر يحتج بالصمت على العالم فهو يكتفي بالأشياء الصامتة ويزهد بالبشر وأصواتهم التي اختفت .

وفي قصيدة أخرى للشاعر يقول فيها:

في قطار النّوم واليقظة،
في اختلاجه، الذّاهب نحو الموت أتياً من الطّفولة ،
في الحركة التي تتسارعُ بين عجلاتهِ وترتخي وتهبط وتعلو ، ...
بين الكلمة والحنجرة أسافر خارج الَصيَّغِ –
الشّكل ونقيضه ...
في الضوء في الظلام
في الصمت في الذهول
في لغة تغيَّر الكلام
في مطر يغيّر الفصول
في الضمأ الجامح والسير بلا وصول(22).

نلاحظ في هذا المقطع مجموعة من المتضادات والمتناقضات المتراكمة بشكل لافت للإنتباه، وما يهمنا هنا ، ثنائية الصمت والصوت التي يعبر عنها الشاعر بـ(الصمت) (الحنجرة واللغة والكلام) وهن رديفات لمفردة الصوت فحولها الى افكار عبر بها عن رؤيته للوجود ، فالنص بفعل هذه الثنائية تحول الى نص رمزي يوحي بعمق التجربة ، فالشاعر يعكس تناقضات الحياة فيصورها كما لو كانت لقطات متراصة ضمن مشهد تصويري يوحي بّلا جدوى

وحين نأتي الى قصيدته (الى سيزيف) نجد الشاعر يقول :

أقسمت أن اكتب فوق الماء
أقسمت أن احمل مع سيزيف
صخرته الصماء

أقسمت أن أظل مع سيزيف
اخضع للحمى والشرار
ابحث في المحاجر الضريرة
عن ريشة أخيرة
تكتب للعشب وللخريف
قصيدة الغبار (23)

هنا نجد الشاعر يتخذ من اسطوره سيزيف –التي ترمز للظلم والعذاب اللانهائي– معادلا موضوعيا لواقعه ومن ثم لذاته فيتخذ من ثنائية الصمت والصوت موضوعا يعكس التعب والنفور . وما يميز نصه انه اورد رموزا للصمت تتمثل ب (صخرته الصماء – المحاجر الضريرة) ويرمز للصوت بـ(اكتب–قصيدة الغبار) اذ يبين من خلال هذه الثنائية التناقضات وعدم الانسجام والاستقرار والصراعات مع الواقع في مقابل التمرد ورغبة التحول وعليه خلقت الثنائية على مستوى لغة النص انحرافا ليؤسس لرؤية شعرية خاصة .

وتستوقفنا قصيدة (مذكرات الصوفي بشر الحافي) لصلاح عبد الصبور اذ نقرأ فيها :

قف...
وتعلق في حبل الصمت المبرم
ينبوع القول عميق
لكن الكف صغيرة
من بين الوسطى والسبابة والإبهام
يتسرب في الرمل كلام

*****

ولأنك لاتدري معنى الألفاظ ، فأنت تناجزني بالألفاظ
اللفظ حجر
اللفظ أمنية
فإذا ركبت كلاماً فوق كلام
من بينها استولدت كلام

لرأيت الدنيا مولوداً بشعاً
وتمنيت الموت
أرجوك..
الصمت...
الصمت!(24)

يتجسد في النص صراع بين سلطة الصمت وسلطة الصوت ، ويبدو من ظاهر القول إن شخصية الشاعر تتخذ موقفا هجوميا إزاء الكلمة الطارئة وبشاعة الصورة لذا يفضل الصمت وتعطيل الحواس ، إذ يعرض الشاعر تلك الثيمة من خلال الأسلوب الحواري المقطوع فالشخصية تعبر عن فزعها من حال الناس لذا جاء السياق متضمنا لأفعال الأمر ودعوة مؤكدة للصمت ، إذن يمكن أن يعد الصمت هنا مجازا ومنظورا للعالم واحتجاجا على الصوت المبتذل المترهل المضمون .

ويعلن الشاعر سعدي يوسف عن صرخاته في أعماق المدينة ، التي تنادي بحقوق الانسان المسحوق ، اذ يدعو الى انقاذ المجتمع المرض والجوع والظلم :

وأمام أبواب الأطباء الأنيقة ، والمطاعم والقضاة
أصرخ باعماق المدينة ، قف بساحات المدينة
أصرخ بهم عن شعبنا المنسي في صمت الحياة
اترك من الصرخات وسماً في الحياة
وسماً في النيران ، يحمي حين ترتعش الحياة(25)

من خلال ما يظهره النص ثنائية الصمت والصوت المتمثل بالصراخ الي يتكرر على نحو صاخب ليعبر عن ثورة الشاعر والمه ازاء المجتمع المهمل والضائع في صمت الحياة ، أي ان الشاعر يجعل الصمت مقترنا بالحياة التي رافقت الانسان الذي يعيش الارياف في مقابل صراخ الشاعر الموجه الى عموم الناس في المدينة ، رغبة في خلق التأثير والتغيير في واقع الفقر والمرض وضياع الحقوق ، فالتضاد شكل صورة دقيقة لها تأثيرها في المتلقي

وبهذا استطاع الشاعر بإبداعه الفني أن يحتوي قصيدته ((الصمت/ الصراخ)) احتواءً واضحاً بحيث تفاعلت مع الفاظ النص من أجل خلق أبعاد واضحة تسهم في

تكوين الصورة الحقيقية لمشاعر الشاعر الداخلية التي هي انعكاس واضح للحس الإنساني الذي يظهره فكان((الخيال والواقع كلاهما وسيلة لنقل ذلك الصراع الداخلي الذي يعاني منه الفنان))(26)

وفي قصيدة (ذكرى الأصدقاء) لفاضل العزاوي تتجلى ثنائية الصمت والصوت ضمن صراع بين الماضي والحاضر :

تضطرب الريح على نافذتي
افتحها وأطل على الماضي
جثث تطفو فوق مياه
عصفورٌ يجثم في عشّه مصلوبا
أرملة تشكو الوحدة
تضطرب الريح فأُغلِقُ نافذتي
ووحيدا اسقط في نفسي:
-ماذا تفعلُ في نفسِك يا عبد الله؟
-ابحثُ عن
عصفور مشنوق
وأرامل يشكون الوحدة
وجنودٍ يتكئون على الأشجار
تضطرب الريحُ على جسدي
فيناديني قلقي البشري
أَدخُلُه في صمتٍ(27)

فالنافذة هي الحد الفاصل بين زمنين ،الماضي المتمثل بالحزن والألم والوحدة واللاجدوى من الأصوات الشاكية والمضطربة في مقابل الحاضر الذي يشكل حضوره صراعاً بين الصوت المتمثل في (يشكون – تضطرب الريح – فيناديني قلقي.. –) والصمت المتمثل في (عصفور مشنوق – ادخله في صمت) وهذه الثنائية عكست صراعا على المستوى التعبيري وعلى المستوى النفسي وكان الشاعر يحاول أن يخلق الأسباب التي ولدت الذات المتشظية جراء ما جسده الحاضر من انفعالات غير مقبولة

والتي تصعب السيطرة عليها لذا تلجأ الذات إلى الماضي وعندما لا تجد ما يسعفها تعود لحاضرها وعندما لا تجد ما تصبو إليه يتولد الصراع والتشظي جراء صدمة الواقع

وفي قصيدة (في جبال الشمال) لنازك الملائكة نجد سلطة الصمت تطغي على نصها لتؤكد الإحساس بالغربة :

عد بنا يا قطارْ
فالظلام رهيبٌ هنا والسكون ثقيلْ
عد بنا فالمدى شاسعٌ والطريق طويل
والليالي قصارْ
عُد بنا فالرياح تنوح وراء الظلامْ
وعواء الذئاب وراء الجبال
كصراخ الأسى في قلوب البشر°(28)

جاءت الصياغات الإستعارية لاسيما المتعلقة بثنائية الصمت والصوت (السكون ثقيل) و(الرياح تنوح) (صراخ الأسى) لتشكل صورة موحية تعكس مضامين نفسية متمثلة بالخوف والشعور بالغربة المكانية والزمنية فيظهر السياق الاستعاري ليوضح الفضاء ضمن إطار وصفي تحاول الشاعرة من خلاله نقل الإحساس بثقل الصمت والظلام الموحش وحزن الأصوات النائحة اثر غربتها النفسية الى المتلقي

وكذلك الحال مع الشاعرة ريم قيس كبة لاسيما في قصيدتها (عذابات نورسة) التي جسدت من خلال ثنائية الصمت والصوت الشعور بالوحدة والخوف والألم :

نوارسُ
أتعبها البوح
فطلقت الأزرق
طلقها الموج
تزوجها
خوف
سكوتْ ..(29)

تميل الشاعرة نحو الصمت في مقابل البوح فهي لا تجد في صوتها ملاذا آمنا لتكشف به عن مكنوناتها أو بالأحرى مكنونات المرأة على نحو عام (فهن نوارس) فالبوح هو الحبر الأزرق الذي يعد كناية عن الكتابة والموج الذي يعد كناية عن ثورة التغيير والمواجهة التي لا طائل منها ، وهي بهذا تعكس قسوة المجتمع والشعور بالخوف والكبت والعزلة .

هذه اللوحة التي جمعت بين الصمت والصوت حققت على المستوى التعبيري شعرية من نوع آخر إذ خلقت معايشة خاصة لخيال المتلقي وإثارة تفاعله إزاء ما يطرح من أفكار وعوالم نفسية تمثلت بالخوف الاجتماعي لدى المرأة إذ تتشكل هذه الحالة جراء عدم القدرة على المواجهة والتواصل والتفاعل الاجتماعي البنّاء مع محيطها البيئي.

وتعلن دنيا ميخائيل عن يأسها وصمتها في (قصيدة غير مكتملة) ، اذ نقرأ :

أريدُ المزيد من الحزن
كي أخترع النهار
أريدُ المزيد من الموت
كي أواصل هذه الحياة
أريدُ المزيد من الصمت
كي أكمل هذه القصيدة(30)

فالصمت يقابل القصيدة غير المكتمله والتي ستكتمل بفعل الصمت وكأن الشاعرة ارادت ان تؤكد ان كل ما نجده سلبيا في حياتنا يمكن ان يكون سببا في الوصول الى الافضل ، فالصمت هنا تعده الشاعرة جزءا من قصيدتها.

او لربما ارادت الشاعرة ان تؤكد ان الصمت هو لغة مجهولة لايمكن ان نعرف كنهها الا بعد النطق ، فالصمت تفكير واسرار ومكنونات تنتظر لحظة الانفجار الذي يولد الابداع ، فليس كل صمت خذلان وليس كل ما يقال حكمة .

وختاما يمكن القول إن الثنائيات المتضادة لاسيما (الصمت والصوت) والألم واللذة في الشعر العربي الحديث أسفرت عن الاصطراع النفسي الذي نازعته نفوسهم بين واقعهم الكائن والواقع المثالي المتخيل ؛ ولعل هذا التنازع بين الواقعين شكل من تلك الثنائية ملمحا أسلوبيا له سماته الخاصة والتي تمخضت عن نتائج مهمة وهي كالآتي :

- إن ثنائية الصمت والصوت كانت بارزة وواضحة في الشعر الحديث حتى يكاد لا يخلو ديوان منها.
- إن التضاد بين الصمت والصوت سمة ظاهرة شائعة لها علاقة في تنظيم فعاليات الإنسان النفسية والفكرية والتعبيرية والاجتماعية وكأن الشاعر يسعى من خلال تلك المتضادات الى تكوين صورة بارزة ومؤثرة لها بعدها الجمالي والتأويلي لتكوين مشاهد لها تأثيرها على المتلقي .
- عكست النصوص علاقة الشعراء بواقعهم الاجتماعي والسياسي وتمردهم عليه ، ساعين إلى تغيير بعض القيم التي قيدت فكرهم وحريتهم، وكان هذا التمرد نابعاً من طبيعة الصراع الكامن في دواخل الشعراء من جهة وبينهم وبين الأنظمة السياسية والاجتماعية المناقضة من جهة أخرى ، إذ كونوا سمات خاصة بهم تؤكد وجودهم وتميزهم عن الآخرين وتعبر عن طريقة تفكيرهم وسلوكهم في التعامل مع المواقف الاجتماعية والحياتية المختلفة مؤكدين بذلك هويتهم الإنسانية .
- عبرت ثنائية الصمت والصوت بدقة عن معاناة الشعراء وعن أدق خلجاتهم النفسية وذواتهم التي تأرجحت بين قيم الأغتراب والانتماء، فجاء رفضهم للصمت الذي شكل رمزا وكناية عن القيد والتضييق وتكبيل الحريات ، متطلعين إلى الحرية وحب الانطلاق من خلال حرية التعبير المتمثلة بلذة الصوت .
- أما موقف الشاعرات من ثنائية الصمت والصوت فقد عكست نصوصهن معالم الغربة الوجودية والنفسية وعكست سوء تعامل المجتمع مع المرأة التي غالبا ما تسعى للعدالة في التعامل معها فقد عبّرت الشاعرات من خلال هذه الثنائية عن رؤى ذات طابع فكري حملت دلالات انفعالية واضحة ولعل هذا نابع من طبيعة حياتهن التي اتسمت بالقلق وعدم الاستقرار والبحث عن الذات والكينونة المؤثرة في الآخر .

الهوامش :

---

(3) الصوت الآخر ، فاضل ثامر ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، 1992م : 216

(4) تحليل الخطاب الشعري ، د. محمد مفتاح ، دار التحرير للطباعة والنشر – بيروت لبنان المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ، ط1 ، 1985م : 317

(*) يقصد بالتضاد في اصطلاح علماء اللغة العربية القدماء : الكلمات التي تؤدي دلالتين متضادتين بلفظ واحد كما في قول أبي بكر الانباري (ت328ه) في مقدمة كتابه الأضداد : ((هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها على المعاني المتضادة فيكون الحرف (يقصد به الكلمة) منها مؤديا معنيين مختلفين)) ينظر الأضداد ، لأبي بكر الانباري ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الكويت ، 1960م :1، وعده البعض الأخر من اللغويين جزءا من مفهوم المشترك اللفظي الذي يقع على شيئين ضدين وعلى مختلفين غير ضدين كالجون للأبيض والأسود وجلل للعظيم والحقير)) ينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، تح: محمد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ، منشورات المكتبة العصرية –بيروت : 1/ 387 ويرى البلاغيون والنقاد العرب القدامى والمحدثين أن التضاد هو التطابق وتارة التقابل ،ينظر: أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تح : هـــ . ريتر ، مكتبة المثنى – بغداد ، 1978م : **15** .

أما الدكتور أحمد مطلوب فيقول: ((أن تسمية " مطابقة " أو " طباقاً " ، غير مناسبة ، ومصطلح " التضاد " أكثر دلالة على هذا الفن ، لأن التضاد يدل على الخلاف)) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، احمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد ، 1987م : **2/ 25**. وهو الرأي الأرجح والأنسب و لأن مفهوم التضاد يوحي بالاختلاف والمعاكسة وهذا لايتفق مع التطابق أو التقابل .

(5) نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د. صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، 1987م: 347

(6) ظاهرة التقابل في علم الدلالة ، د.احمد نصيف الجنابي ، مجلة آداب المستنصرية ، ع19، 1984م :15

(7) علم الدلالة ، أف–أو بالمر ، ترجمة : مجيد الماشطة ، الجامعة المستنصرية – مطبعة العمال المركزية – بغداد ، 1985م: 110

(8) ــيوسف الخطيب ، ذاكرة الأرض ، ذاكرة النار ، دراسة ، ناهض حسن (فائز العراقي)، منشورات اتحاد الكتاب العرب ــ- دمشق ، 2004 م : **38**

(11) م . ن : 47

(14) صلوات الريح ، دار الطليعة ، بيروت ، 1963م :144

(15) اعتراف في حضرة البحر ، دار الرشيد للنشر ، دار الحرية للطباعة – بغداد،1983م :142-143

(16) أنشودة المطر ، دار العودة – بيروت ، 1983م : 110-111

(17) الاغتراب في الأدب والفن ، شاكر نوري :86

(18) ديوان بلند الحيدري ، دار العودة –بيروت ، 1980م : 613

(19) الاعمال الشعرية الكاملة ، دار الحرية للطباعة والنشر – بغداد ، ط2 ، 2001م: 2/ 254

(20) م.ن :2/ 342

(21) الآثار الكاملة ، دار العودة – بيروت ، 1971م : 491

(22) الاعمال الشعرية ، مفرد بصيغة الجمع وقصائد أخرى ، دار المدى للثقافة والنشر ، لبنان،سوريا 1996م 3/92-93

(23) أغاني مهيار الدمشقي ،مطبعة مايك وكمال ، منشورات مواقف بيروت ، ط2،1970م : 101

(24)) ديوان صلاح عبد الصبور ، دار العودة – بيروت ، 1972م : 263

(25) ديوان سعدي يوسف، ط1،، دار العودة، بيروت ــ 1988م : 1/ 4

(26) التفسير النفسي للأدب ، د . عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ــ القاهرة 1963 م : 44

(27) الأعمال الشعرية ، فاضل العزاوي ، منشورات الجمل – المانيا ، ط6 ، 2006م : 307/1

(28) الأعمال الشعرية الكاملة ، دار العودة – بيروت ، 1986م، 3: 126

(29) نوارس تقترف التحليق ، ريم قيس كبة ، ط1 ، مطبعة بغداد ، 1991م : 97

(30) نزيف البحر ، دنيا ميخائيل ، مطبعة وأوفسيت عشتار – بغداد ، 1986 : 64

قائمة المصادر:

1- الآثار الكاملة ، عبد الوهاب البياتي ، دار العودة – بيروت ، 1971م .
2- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تح : هـــ . ريتر ، مكتبة المثنى – بغداد ، 1978م .
3- الأضداد ، لأبي بكر الانباري ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الكويت ، 1960م
4- اعتراف في حضرة البحر ، خليل حاوي ، دار الرشيد للنشر ، دار الحرية للطباعة – بغداد،1983م .
5- الاعمال الشعرية الكاملة ، عبد الوهاب البياتي ، دار الحرية للطباعة والنشر – بغداد ، ط2 ، 2001م.
6- الأعمال الشعرية ، فاضل العزاوي ، منشورات الجمل – المانيا ، ط6 ، 2006م.
7- الأعمال الشعرية الكاملة ، نازك الملائكة ، دار العودة – بيروت ، 1986م .
8- أغاني مهيار الدمشقي ،مطبعة مايك وكمال ، منشورات مواقف بيروت ، ط2 ، 1970م .
9- أنشودة المطر ، بدر شاكر السياب ، دار العودة – بيروت ، 1983م .
10- تحليل الخطاب الشعري ، د. محمد مفتاح ، دار التحرير للطباعة والنشر – بيروت لبنان المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ، ط1 ، 1985م
11- التفسير النفسي للأدب ، د . عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ــ القاهرة 1963م
12- الخصائص، ابو الفتح عثمان ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الهدى – بيروت ، ط2 ،د.ت .
13- ديوان بلند الحيدري ، دار العودة –بيروت ، 1980م .
14- ديوان سعدي يوسف، ط1،، دار العودة، بيروت ــ 1988م
15- ديوان صلاح عبد الصبور ، دار العودة – بيروت ، 1972م .
16- الشخصية بين التنظير والقياس، قاسم صالح ، مطبعة التعليم العالي – بغداد، 1988م
17- صلوات الريح ، خليل حاوي، دار الطليعة ، بيروت ، 1963م.
18- الصوت الآخر ، فاضل ثامر ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، 1992م.
19- علم الدلالة ، أف–أو بالمر ، ترجمة : مجيد الماشطة ، الجامعة المستنصرية – مطبعة العمال المركزية – بغداد ، 1985م
20- في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ــ لبنان ، الطبعة الأولى، 1987م .
21- في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس ، مطبعة لجنة البيان العربي – مصر ، ط2 ، 1952م .
22- قضايا علم الجمال السينمائي مدخل إلى سيميائية الفيلم ، يوري لوتمان ، ترجمة : نبيل الدبس وقيس الزبيدي ، وزارة الثقافة – المؤسسة العامة للسينما – دمشق ، 2001م
23- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، تح: محمد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ، منشورات المكتبة العصرية –بيروت

24- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، احمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي – بغداد ، 1987م .
25- نزيف البحر ، دنيا ميخائيل ، مطبعة وأوفسيت عشتار – بغداد ، 1986 م
26- نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د. صلاح فضل ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، 1987م.
27- نوارس تقترف التحليق ، ريم قيس كبة ، ط1 ، مطبعة بغداد ، 1991م .
28- يوسف الخطيب ، ذاكرة الأرض ، ذاكرة النار ، دراسة ، ناهض حسن (فائز العراقي) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب –- دمشق ، 2004 م .

الدوريات

1- ظاهرة التقابل في علم الدلالة ، د.احمد نصيف الجنابي ، مجلة آداب المستنصرية ، ع19، 1984م .

Bilateral silence and sound Privacy antibodies in modern Arabic poetry

Dr. Isra Hussein Jaber
Mustansiriya University / Faculty of Arts

Summary :

The study includes research in the privacy of opposites in modern Arabic poetry, especially bilateral silence and sound that formed the style and feature of poetry carried with it the attitude philosophical and poetic, the body of a paradox at the expressive and semantic if I took out their scripts, which is familiar to questioning reality and introducing it into the reality of my hair more impression, as if the poets sought through this binary image composition prominent and influential beyond its aesthetic and hermeneutical Twain scenes for a clear and precise. No it was expressive of their suffering and psychological Khaljathm